

أبرز مؤلفات الكتابة

- تعزيز مهارات الفنون اللغوية
- نشر التوعية بالإعاقات
- حفز الحوار

مقتطف ومقتبس عن كتاب
"تاريخ حذائي وتطور نظرية داروين"

[The History of My Shoes and the Evolution of Darwin's Theory]

(New York: Carroll and Graf, 2007)

بقلم كيني فرايز

الأخذية المائية، قياس ستة

دخل إيان غرفة قياس الملابس وهو يحمل برجاً من علب الأحذية في ذراعيه. وفي أقل من أسبوع، من المتوقع أن أذهب خلال خمسة عشر يوماً في رحلة تجذيف في نهر كولورادو عبر الوادي الكبير "غراند كانيون". وكنا قد عثرنا على الهدلة المناسبة المقاومة للتبلل في محل السلع الرياضية في منطقتنا، ونحن نحاول الآن العثور على الأحذية المقاومة للتبلل والتي تناسب قدمي.

لقد زرت هذا الوادي مرتين من قبل. وكانت الجماهير تتدفق خارجاً من سياراتها الترفيهية لمشاهدة غروب الشمس الشبيه بما يوضع على البطاقات البريدية وهم يجلسون على كراسيهم القابلة للطي، بينما تصرخ عائلات على بعضها البعض في الحر. ولم أستطع السير نزولاً من طرف الوادي حتى نهر كولورادو. ولم تكن الحديقة العامة للوادي الكبير غراند كانيون إحدى ما أفضله من أماكن، لكن الفرصة تسنت لي الآن لإختبار الوادي بالطريقة التي أردتها دائماً، أي من خلال كوني في وسطه.

عندما وصلتته النشرة التي تعلن عن الرحلة، بقيت على طاولة مكتبي. وعندما كنت إستيقظ في وسط الليل، كنت أذهب إلى مكتبي وأراها تحرق بي. لقد كان الرحلة لذوي الإعاقات وأصدقائهم، لذا لن أكون الشخص الوحيد ذوي الإعاقات لو ذهبت، لكن كان على إيان أن يعمل ولم يكن بإمكانه الذهاب معي. فمن سينصب خيمتي ويحمل عدتي ويساعدني على الوصول إلى الأماكن التي كنت أريد الذهاب إليها؟ وكنت بحاجة إلى إنتعال حذائي برأ، لكنني أردت أن يبقين سليمين وجافين عندما أركب النهر. لقد كان تجذيف زوارق الكياك والذي قمت به في تايلاند في المياه الهادئة. فكيف سأبقي حذائي جافين وسليمين من شلالات نهر كولورادو؟ كيف سأعود إلى منزلي لو أضعتهما أو تعرضا للتلف؟ كيف سأحيا بدونهما؟

في النهاية، إتصلت. وأكدت لي منظمة الرحلة ميري مكدونالد عبر الهاتف أن يمكن إبقاء حذائي سليمين وجافين، إذ ستكون هناك أكياس جافة وصناديق معدنية متينة على متن القوارب. وسيساعدني دليل متطوع في كافة المهمات الجسدية التي لا أستطيع القيام بها. ثم أكدت لي قائلة: "إنهم هناك لهذا الغرض". كما أخبرتني ميري أن مياه نهر كولورادو باردة جداً ولا تفوق خمسين درجة فارنهايت. وعندما أخبرتها أنني أواجه صعوبة في غمر نفسي في مياه حوض ساخن للسباحة، إقترحت علي إحضار بدلة وحذائين مقاومتين للتبلل.

ونظراً لقصر رجلي والتباين بين طولي رجلي، فكان يجب تعديل كافة البنطلونات التي إشتريتها منذ الصغر. وحتى كنت مراهقاً، كانت أُمي تقص وتخييط الحاشية. ثم كان محل خياطة في منطقتنا قام بتعديلات ميدانية يحتفظ بقياساتي – 19 إنش للرجل اليسرى و17.25 إنش لليمنى – على جدار غرفة التعديلات. أما الآن، فأنا آخذ بنطلوناتي إلى محل خياطة مسمى بـ"سو غود" [الخياطة الجيدة] في منطقتنا. لكن لا يمكن تعديل بدلة مقاومة للتبلل ومصنوعة من مادة النيوبرين الشبيهة بالمطاط. فكيف سأعثر على بدلة مقاومة للتبلل وتناسبني؟

وإقترحت علي ميري المعتادة على التعامل مع كافة أنواع الأجسام أن أبحث عن نوع بدلة مقاومة للتبلل ومسماة بـ"ليتل جون" [الرجل الصغير]. فهذه البدلة المقاومة للتبلل كاملة القياس في جزئها الأعلى إنما هي موصولة ببنطلون قصير مقاوم للتبلل. أما الحذاء، فأقترحت مقياساً لقدم واحدة ومقياساً آخر للآخرى.

لقد شعرت بالإرتياح للتكلم مع شخص كان يفهم ما أمر به من منزاعات، لكنني لم أعتقد قط أنني سأجد العدة المناسبة. كنت أشعر باليأس، بفقدان الأمل، لكن العثور على العدة لرحلتي كان بمثابة مغامرة بالنسبة لإيان الذي لم يكن لديه أي خوف مثلي ولا رجلين مثل رجلي.

وعند البحث بين البدلات المقاومة للتبلل في محل السلع الرياضية، عثرنا على بدلة "ليتل جون". وكانت هذه البدلة مناسبة كما إقترحت ميري. وها هو إيان الآن يأتي ببرج من العلب ليحضر لي كل نوع من الأحذية المقاومة للتبلل في المحل والتي كان يعتقد أنها ستناسب قدمي.

وأخبرني إيان قائلاً: "لدي كافة الأنواع وكافة المقاييس".

وبدا إيان بفتح العلب، فتصاعدت موجة جديدة من اليأس من معدتي إلى صدري. كيف يستطيع شخص بمواصفات جسمي مجرد التفكير في التجهيف في نهر الوادي الكبير غرند كانيون؟ فالخوف الذي لطالما تربص بي لا يضمحل بسهولة. إن أشعر وكأني غير صادق.

وها هو إيان ينحني ليضع حذاءً على قدمي ولا يسعني إلا أن أتخيل أنني سنديلا وهي ما زالت تشعر بالخجل لفرارها من الحفلة، إلا أن لا أحذية زجاجية أو غيرها ستنزلق بسهولة على قدمي.

وقال إيان: "دعنا نحاول تلك التي بها زمام منزلق أولاً. وتلك التي كعبها مطاطي للدعم. دعنا نقيس قدمك اليسرى أولاً ودعنا نبدأ بالقياسات الأصغر."

كان الأمر كما لو عدنا إلى أدغال بالي، حيث كان إيان يتجسس بشكل حاذق على السعادين السوداء وهو يقودني عبر الأشجار الكثيفة. ولحسن الحظ، كان الحذاء الأول الذي حاولنا قياسه – وهو حذاء مائي، القياس ستة – قدمي الأيسر.

فسأل: "قف. كيف تشعر في هذا الحذاء؟"

أنا متأكد من أن الحذاء على قدمي اليسرى سيسبب الأذى لقدمي وأنا واقف، لكنني تعجبت لأنني تمكنت من تحمل وزني. وكانت كلمة "رائع" كل ما إستطعت أ، أقوله.

وقال إيان وهو يلتفت إلي مبتسماً: "والآن، ربما علينا أن نحاول قياساً أصغر لليمنى، لكن دعنا نرى إذا اليمنى ستكون مناسبة أيضاً".

فحاولنا الحذاء الآخر. لا أصدق ذلك، إنما قياسه مناسب أيضاً. وأعلم أن الوقوف والسير سيكونان الإختبار الحقيقي. ولا أريد أن أؤذي نفسي. وكنت لا أزال أتوقع أن تلف قدمي اليمنى إلى جانبها بدون دعم من حذائي.

لكن دهشت من جديد لأن الزمام المنزلق وشريط الفيلكرو والكعب المطاطي أبقت قدمي منتصبية. لقد كان الحذاء المصنوع من النيوبرين يحمل المزيج المناسب من المرونة والدعم. ولم تلتوي ركبتي. ولم أسقط. وكنت أسير من جدار إلى جدار في غرفة القياس الصغيرة.

فسألت إيان: "كيف عرفت أن هذه الأحذية ستناسبني؟"

وأجاب قائلاً: "إفترضت ذلك. إني أعرف قدميك جيداً حتى الآن"، وهو لا يزال ينحني أرضاً. وتابع قائلاً: "إنك قياسك هو ستة. ما هو شعورك حول أن لديك قياساً معيناً لحذائك؟"

لم يكن لدي أي فكرة حول كيفية الإجابة.

الطوفان على سطحه

في الليلة قبل مغادرتي للتوجه إلى الوادي الكبير غراند كانيون، شاهدت فيلماً وثائقياً على قناة PBS حول إستكشاف جون ويسلي باول لنهر كولورادو. وإعتقدت إنني في مأزق بمجرد مشاهدتي للشلالات على جهاز تلفزيون حجم شاشته خمسة عشر بوصة.

وفي 4 نيسان/أبريل 1862، كان باول يقاتل في معركة الحرب الأهلية الأمريكية في شايلو. وسحقت قذيفة مدفع ذراعه الأيمن. وبعد ثلاثة أيام في سافانا، تم بتر ذراعه الأيمن فوق المرفق. وقرأ راوي قناة PBS من سيرة حياة باول بقلم وليس ستينر بعنوان *Beyond the Hundredth Meridian*: "إن فقدان المرء لذراعه الأيمن هو بلية؛ ويمثل للبعض كارثة وللآخرين حجة. لقد أثر على حياة ويس باول كما تؤثر حجارة متساقطة على مجرى النهر. فهو سرعان ما طاف على سطحه."

ثم حاولت النوم، إلا أنني بقيت مستيقظاً من الخوف والتوقع. وكنت أكرر لنفسني أن باول قام برحلته عبر الوادي بذراع واحد. وأصبحت صور الشلالات الشبيهة أكثر بركوب الأمواج أكبر فأكبر طوال الليل. فحتى لو لم أكن معاقاً، لكننت ما زلت أشعر بالخوف.

وفي أواخر سن المراهقة وأوائل العشرينات من عمري، لم أكن أخاف من السفر. فعندما كنت طالباً جامعياً، كنت أعيش وأدرس في لندن وفي كانبريدج. وفي تلك السنة، أثناء العطل المدرسية، سافرت في كافة أنحاء أوروبا وأنا أحمل مجرد حقيبة ظهر. وفي عام 1984، ذهبت إلى إسرائيل. ولقد أمضيت أسابيع عديدة وأنا أبحث عن الخرائب في الصحراء الجنوبية الغربية وسافرت إلى بالي مع إيان. كما سافرت بمفردي إلى تايلاند.

ويبدو أن الخوف يزداد سرعة وقوة بينما أصبح أكبر سناً. وراودني القلق عندما إقترب وقت مغادرة المنزل. ويقول الدكتوران نيسي وويليامز في كتابهما *Why We Get Sick*: "لو كان هناك أشخاص مولودون بدون القدرة على الخوف، فلعله يجب البحث عنهم في غرفة الطوارئ أو المشرحة. الخوف هو الإشارة إلى أن موقفاً قد يكون خطيراً، إلى إحتمال حدوث نوع من الخسارة أو الضرر، إلى أن الفرار مرغوب." فلماذا يظهر الخوف الآن بينما أتقدم في السن؟

لقد ورثت عن أبي وأمي المثابرة، وكذلك الخوف من الخطر الم حدق. وبينما أتقدم في السن، تلغي هاتان الغريزتان المتنافستان للمثابرة والخوف بعضهما، وأزداد تنزاعاً مع إقتراب وقت المغادرة .

وبينما أنا مستيقظ، كنت أفكر في إيلاي كليير الكاتب المصاب بلشلل الذي يحب تسلق الجبال. فلقد كتب كليير عن مجابهة الصورة التي لدى العديد من الناس حول المعاقين: "سوبر كرييب" [الأعرج الخارق]. ولقد أشبعت هذه الصورة العالم بقصص عن "الأعرج" الذين يشاركون في نشاطات تتراوح من العظيمة إلى الدنيوية: صبي بدون يدين يضرب الكرة 486. في فريق إتحاد الصغار للبيسبول، رجل أعمى يسير كامل الممر الطبيعي للجبال الأبالاشية، فتاة مراهقة مصراية بمتلازمة داون تتعلم قيادة السيارات ولديه صديق حميم. وترکز هذه القصص على معاقين "يتغلبون" على إعاقاتهم، مما يعزز نفوق الجسم والعقل غير المعاقين. إن ما تكتبه المؤلفة جوان توليفسون عن حياتها بذراع واحد – "يعبر لي الناس والدموع في عينيهم عن إندهاشهم لكيفية حسن قيامي بالأشياء، مثل ربط شريط حذائي" – يظهر كيف تحول هذه القصص المعاقين الذين يعيشون بكل بساطة حياتهم إلى رموز إلهام، من أفراد إلى أفكار مجردة.

إنني أحب السفر مثل إيلاي كليير الذي يحب الجبال بـ"دمدمة عميقة" في عظامه. ومثل إيلاي كليير ومعاقين عديدين آخرين، إنني أيضاً أحمل خرافة "سوبر كرييب". فغالباً ما يكون من الصعب علي للغاية أن أفصل بين ما أريد القيام به وما لا أستطيع القيام به. وأنا أشعر بالإرباك بسبب تمازج خوفاي برغبتي.

فهو سرعان ما طاف على سطحه. إنني أفكر بجون ويسلي باول وهو يهبط نهر كولورادو بذراع واحد في قارب خشبي أصغر من زورق تجديف؛ وكيف أن باول تسلق الجانب الصخري من وادٍ ليجد نفسه وحيداً على حافة وغير قادر على الهبوط. وأفكر بكيف صعدت يوماً جبل الأسد والحمل في منطقة البحريرات في إنجلترا؛ وكيف بلغت القمة في النهاية. وكنت أشعر بالألم في رجلي وظهري فكان لدي القليل من الطاقة على الهبوط. وكنت أفكر في نزولي أربعة عشر ميلاً من قمة "غليشير بوينت" إلى وادي يوسيمينت. فلم أدرك أن الرحلة ستستغرق طويلاً، وكان عليه أن أسير الأميال الثلاثة النهائية من الممر وأنا أعرج في الظلمة.

وما زلت مستيقظاً وأنا لا أريد الذهاب.

فنهضت من سريري لأقرأ كلمات ستينير عن باول، أي الكلمات التي سمعتها على الفيديو: *إن فقدان المرء لذراعه الأيمن هو بلية؛ ويمثل للبعض كارثة وللآخرين حجة*. ونظرت إلى الأعلى فرايت حقايبني

وهي جاهزة لتوضع قرب الباب الأمامي. وأعلم أن في قعر حقيبتي هناك بدلتى المقاومة للتبلل وحذائي المائيين. وكان حذائي الوحيد قرب حقيبة الظهر.

وتذكرت كيف كان إيان يدخل غرفة القياس وهو يكاد يوازن برج علب الأحذية المقاومة للتبلل. نظرت خارج النافذة وأدركت أنني لم أنم طوال الليل. لقد سبق أن طلع الفجر.

عدم الأتانية التبادلية

كتب جون ويسلي باول عندما بدأ رحلته الأولى عبر نهر كولورادو: "نحن مستعدون الآن للبدء برحلتنا عبر المجهول. إن قواربنا المربوطة بوترد مشترك تلامس بعضها بينما يقذف بها النهر المشاكس." ونظرت حولي إلى فريقنا المتنوع: مارك ودانييل وهناء يستخدمون الكراسي المتحركة. وأنا وبين نستخدم العصا، وأنا وسالي ننتعل الأحذية المخصصة لأمراض العظام. ويعاني ستة من أصل أحد عشر مشارك من إعاقات تتراوح من الشلل الرباعي إلى التصلب المتعدد؛ وتتراوح أعمارنا من أوساط العشرينات إلى أوساط السبعينات. وأخبرتنا رئيسة رحلتنا بيرت قبل وضعنا على النهر: "على الرغم من أن الأمر قد يبدو سخيلاً، إلا أننا سنعيش كأسرة خلال الأيام الخمسة عشر التالية".

وكان بيننا سبعة مرشدين من "مرافقي السفر البيئي" [Environmental Traveling Companions أو ETC] سيساعدون هؤلاء الذين بحاجة إلى المساعدة. هناك أيضاً ستة مرشدين من الشركات التجارية، وكل واحد مسؤول عن كل قارب من القوارب المطاطية الصفراء، وإثنان يقودان مركب أكبر بمحرك سيحمل عدتنا والطعام وكذلك الكراسي المتحركة نزولاً في النهر.

في اليوم الأول، تعاملنا مع الأمر ببطء، ونحن ننزل الوادي من طبقة صخور إلى أخرى. وسرعان ما تكيفت مع الحياة على ضفاف النهر: التحرك الصعب في الشواطئ الرملية؛ والنوم والإستيقاظ الباكرين؛ والحمامات في الهواء الطلق. وتعلمت أفضل طريقة للجلوس في القارب، وإستخدام وسادة عنق مبطنة تخفف من الضغط على ظهري بينما تعطيني شيئاً إضافياً أتمسك به، إذ أنها مربوطة بالمركب.

والأهم هو أنني تطورت عادة قبل ركوب القارب. وناولت حذائي وعصاي المغلفين بكيس أسود كبير محكمة الإغلاق، لمات وتيم المسؤولين عن "المركب الكبير" حيث يحتفظان به في صندوق معدني طويل. وعندما توقفنا لتناول الغداء، شاهدت الكيس الأسود بانتظاري قرب كرسي بلاستيكي أبيض. وعندما

توقفنا للنوم تحت الخيمة ليلاً، شاهدت الكيس الأسود بانتظاري قرب الكرسي، فبدأ خوفي من إضاعة حذائي يخف.

في صباح اليوم الثاني، وفي وادي ماربل كانيون، عبرنا شلالات رورينغ توانتيز الصاخبة فأصبنا للمرة الأولى بأموج قوية. كانت المياه أبرد مما تصورتها. وبما أن هذا الجزء من الوادي يتوجه من الشمال إلى الجنوب، فإننا لم نتعرض لكثير من الشمس.

وبينما كنا نجذف عبر شلالات رورينغ توانتيز، دربنا مسؤول القارب بوب على الإنحناء إلى جانب واحد من القارب عندما يطلب منا القيام بذلك. فهو يصرخ "الجانب العالي" فيحنني هؤلاء القادرون على ذلك نحو الجانب الأمامي الأيمن من القارب. وكنت أراقب جسم بوب النامي الأعلى بينما يحرك المجدافين عبر المياه المستديرة، مما سمح لنا بالعبور الآمن للمجموعة الأولى من الشلالات. وبدأت بأن أثق به وبأن أريد إختياري لأكون في قاربه كل صباح.

وبحلول العصر، كنت أتمكن من الاستراحة وإستيعاب المعلومات الجيولوجية للجدران الحمراء الداكنة لهذا الجزء من الوادي. وكنت أضيع نفسي في مجرد ضخامة مكان تختفي فيه بسهولة إمكانية قياس الحجم والمسافة.

وفي اليوم الثالث وفي أواخر الصباح، وصلنا إلى جنة فاسي براداييز، وهي واحة من الاخضرار يتغذى من شلال رفيع يرتفع من جدار الوادي الأيمن للنهر ومسمى بـ "باول" ومو إسم عالم نبات. ونزل الجميع من القارب هنا. وحمل المرشدان راي وستيف هناء وهي سيدة تعاني من شلل متعدد وتحتاج إلى مساعدة في التحرك، إلى الدفق أدنى الشلال. وكان الدفق الآتي من وادٍ جانبي بارداً لكن ليس ببرودة المياه في نهر كولورادو.

وبعد الكثير من التردد والحث من زملائي في النهر، قررت المغامرة بالوقوف على الصخور الزلقة. وكانت هذه تجربتي الأولى في السير وأنا أنتعل حذائي المقاوم للتبلل على الأرض. وبعد إلقاء نظرة على الصخور، حاولت تقييم نسبة المساعدة التي قد أحتاجها: شخص يساعدني على الخروج من القارب؛ وشخص على كل جانب لتثبيتي على الأرض، فطلبت مساعدة راي وستيف، وبلغت الشاطئ بمساعدتهما. لم أكن معتاداً على السير بدون حذائي المصنوع من الجلد والنعل السميكين. وكانت البدلة المقاومة للتبلل تلتصق بجسدي. وكان من الصعب التركيز على السير عندما كنت محاطاً بأشجار مزدهرة – وهي مفاجأة في الصحراء – وكان اللون الأخضر يبدو أنه داكن أكثر بالمقارنة مع جدران الوادي الحمراء.

وكننت أراقب المياه وهي تتدفق من الجدران إلى الساقية النقية للوادي الجانبي، ثم إلى نهر كولورادو الوحلي. وبعد الخطوات القليلة الأولى خارج القارب، لم أعد بحاجة إلى مساعدة راي وستيف. فالأمر يبدو الآن وكأنني أسير بدون أي وزن على القمر.

وفي تلك الليلة، وبعد تناول العشاء، جلست مع ميري والمرشدين قرب نار المخيم. وشكرت راي وستيف على مساعدتهم في إخراجي من القارب إلى جنة فازي براداييز. وسألت راي: "لماذا تقومون بذلك؟"

"لدي قريب مصاب بشلل دماغي. وأحب أن أكون في النهر."

كان وليام د. هاملتون وهو عالم بيولوجي بريطاني الأول الذي ربط تأكيد داروين على أنه يجوز تطبيق الإختيار الطبيعي على العائلة الواسعة. وبما أن أفراد أسرة يتقاسمون أكبر عدد من الجينات، فإن سلوك عدم الأنانية نحو الأسرة هو المصلحة الذاتية التطابقية للجين. والجين هو أنه يمكن نشر طيبة القلب عبر العائلة الواسعة، ومن ثم، إلى عائلات أخرى.

وأخبرتني ميري قائلةً: "أجد أن معظم المرشدين لديهم خبرة مع فرد عائلة أو صديق قريب معاق."

صخر الشست

في اليوم السادس، وبعدما وجه بوب القارب عبر هانس، وهو عمل بطولي فني نظراً للصخرة الكبيرة التي يجب تجنبها لعبور الشلال، دخل صخر الشست، فكان ذلك أشبه بدخول وسط الأرض. إن صخرة فيشنو المكشوفة في وادي غرانيت الداخلي هي صخرة متحولة تشكل أقدم وأعمق طبقة في وادي غراند كانيون. وتأتي هذه الصخرة السوداء من الحمم والأحجار الرملية والطيني المتحجر والمتراكمة في قعر البحر قبل أكثر من 1.7 بليون سنة. وصخرة الشست هي من أقدم الصخور التي إكتشفها الإنسان. ويبرز حجر الصوان زوراستر الوردية والأحمر عبر صخر الشست الداكن.

ومن المعتقد أم الحياة موجودة على الأرض منذ ما لا يقل عن 3.4 بليون سنة، لكن حتى قبل نحو بليون سنة، كانت الحياة غير هوائية وأحادية الخلية. وقبيل تحول صخرة فيشنو، أنشأت الكائنات الحية من الكلوروفيل جواً جديداً يخلو من الأوكسجين. وسبب هذا التغير في الجو إنقراضاً واسعاً في الأشكال غير الهوائية وجعل من الممكن أن يحدث التطور المتعدد الخلايا.

وفي ذلك الصباح، وبينما أطوف على الشست، فكرت مرة أخرى بداروين بعد زلزال كونسبيون وقبل بولغه جزر الغلاياغوس، والربط بين الإرتفاع الجيولوجي التدريجي لللايل وما شاهده أمامه. ومثل داروين قبل بعثته في جبال الأندس، فإني شعرت ليس فحسب بالدهشة لما أراه، بل أيضاً بالصمت وأنا أدرك أن هنا - بينما أطوف نهر كولورادو عبر وادي غراند كانيون - عدت إلى زمن لا يسبر غوره قبلما حدث ما نعرفه الآن عن الحياة.

وسحب البحارة مجاذيفهم. ولزم جميعنا الصمت، وكان الصوت الوحيد هو صوت تيار النهر، وصوت الذهاب إلى أي مكان يأخذنا النهر إليه.

أرضية محمولة وقوارب صفراء

جون ويسلي باول هو الشخص الأول ذو إعاقة الذي تم تسجيل أنه نزل نهر كولورادو وعبر وادي غراند كانيون. ولسنا نحن الأشخاص الستة ذوي الإعاقات في هذه الرحلة أوائل المعاقين الذين قاموا بهذه الرحلة منذ باول.

وفي أوائل السبعينات، وضعت دائرة الحدائق العامة [National Park Service أو NPS] نظاماً لضبط الوصول إلى النهر، فخصصت عدداً معيناً من الأيام للشركات التجارية المستخدمة للنهر. وقدمت مجموعة من المتحمسين للرياضات الخارجية وذوي الإعاقات الجسدية في أريزونا عريضة لدائرة الحدائق العامة. ففي عام 1972، طالب هؤلاء النشطاء بأيام مخصصة للمعوقين وباشروا بتكوين مجموعة مسماة بـ Jumping Mouse Camp لنزول النهر.

وفي اليوم السابع، كان يوماً حراً أيضاً. ونادى جون، وهو صاحب شركة Outdoors Unlimited، وهي إحدى الشركات التجارية التي تقود فريقنا في النهر، قائلاً: "أنظروا إلى هذا."

فاقتربت من مجموعة خضراء رمادية وكثيفة من النبات المزهر قرب الأرض. ولمس جون بسبابته المدقات في وسط زهرتها الوردية اللامعة. وعندما أزاح أصبعه برقعة، بدأت توجيات الزهرة بالإغلاق. "تعتقد شجرة الصبار أن أصبعي هو حشرة كبيرة تكفي للقحها، لذا تريد الزهرة إلتقاطي لمدة تكفي للتأكد من أنني سأنتشر غبارها إلى زهرة أخرى. إنه تكيف رائع للحياة في الصحراء."

وخلال الغداء، تكلمت ما جون الذي إنضم إلى الرحلة ليتعلم المزيد عن أنواع التكييفات التي يحتاج إليها الأشخاص ذوو الإعاقات في النهر. فأخبرني قائلاً: "باستثناء صديق قريب لي، لم يكن هناك الكثير من الأشخاص المعاقين خلال رحلاتنا."

فقلت له: "لا أريد أن أكون الشخص المعاق الوحيد في رحلة. سأشعر أنني أسبب في تأخر المجموعة لو أخذت وقتاً إضافياً. وسأشعر بالكآبة لأنني لا أستطيع أن أقوم بما يقوم به الآخرون."

وعدنا سيراً إلى القوارب على ممرات بلاستيكية متحركة مرتبة على الرمل في أشكال متنوعة ليتمكن مستخدمو الكراسي المتحركة من التحرك بسهولة أكبر على الأرض غير المتساوية. وقال جون: "كنت في حفل زواج تم في حديقة منزل تحت الخيمة، فوأيتهم يستخدمون هذه الأرضيات المحمولة لتسوية الأرض في الخيمة وفتح ممرات في الخارج على الأعشاب. وكان صديقي في كرسي متحرك يريد النزول حتى النهر معنا، وأعتقدت أن هذه الأرضيات مثالية لتسهيل الأمر عليه على الرمل." لذا ليست الأرضية المحمولة مصنوعة من قبل "مرافقي السفر البيئي" كما كنت قد افترضت، لكنها من الإختراعات القائمة التي كيفها جون ليستخدموها.

وفي اليوم التاسع، وفي وقت متأخر من ليلة نقية مليئة بالنجوم، كنت أجلس قرب النهر. وبدون مرآة ومن خلال فقط مصباح ودلو صغير من الماء البارد، حلقت للمرة الأولى منذ إنطلقنا فوق وادي ماربل كانيون.

وبينما كنت أخلق، كنت أفكر كيف أن القاعدة خلال هذه الرحلة هي: إذا لا يستطيع كل شخص القيام به، فلا يقوم به أحد. وحتى الآن، وعلى الرغم إعقاتنا، وبسبب الإستخدامات التكميلية لمواد مثل الأرضية المحمولة ومساعدة المرشدين، تمكنا من القيام بكل شيء تقريباً من قبل مجموعة بدون مجذفين معاقين. وكل شيء تقريباً على الشاطئ هو تكييف: ليس فحسب الأرضية المحمولة إنما أيضاً المطبخ الإفتراضي ونظام الضخ لتنقية ماء الشرب، والحمامات الخارجية، والدلو الذي أسخدمه للحلاقة خارجاً بالماء البارد، وحتى الخيم، والأضواء التي أراها تتحرك داخل خيمة سالي، وطبعاً القوارب المطاطية الصفراء. وكلها تكييفات تسمح لأكثر عدد ممكن من الأشخاص النزول في النهر بأكثر درجة ممكنة من السلامة والإرتياح.

وها أنا أجلس وأحلق على ضفاف نهر لؤلؤرادو في الوادي الكبير غراند كانيون. وخارج الخيم،
تعكس الكراسي المتحركة نور القمر. أما داخل خيمهم، فكان دانييا ومارك وهناء ربما ينامون، لكن سالي
كانت لا تزال تنتقل حول خيمتها بينما ترتب عدتها.

سرت حتى خيمتي. وقبل ذهابي للنوم، قمت بتلميع حذائي.

عبور النهر

هناك طرق مختلفة لعبور المياه.

وفي اليوم العاشر، بلغنا وادي هفاسو كانيون. وكان هدفي هذا اليوم هو أن أقطع فقط نصف ميل
على الوادي لأجلس في وسط الصخور الوردية والمياه الزرقاء النقية لجدول هفازو كريك.

وكانت القوارب الصفراء الأرابية راسية جنباً إلى جنب داخل مدخل الوادي الداخلي. وللوصول من
قاربنا إلى الشاطئ، كان علي أن أعبّر فوق ثلاثة قوارب أخرى راسية. ومن القارب الأقرب إلى الشاطئ،
كنت أرى أن قائدي القارب الكبير مات وتيم قد تركا الكيس الأسود الذي يحتوي على حذائي والعصا على
بعد ثلاثمائة قدم من طرف الصخرة، أي المكان الذي سأقصد. فكرة جيدة. وعندما بلغت الطرف، جلست
وغيرت حذائي المائي فإنتعلت حذائي العادي. وعند النظر إلى الممر غير التساوي عبر الصخور، شعرت
بسرور لأنني لمعت حذائي الليلة السابقة.

وبينما كنت أستبدل حذائي، مرت مجموعة أخرى من المغامرين.

وتوقفت امرأة رمادية الشعر لتقول لي: "إننا مَعْجَبِين جداً".

وسمعت نفسي تقول: "لا تكوني معجبة. إقرأ أي كُتْبي".

وكان البحار دان وزوجته كيت اللذان إلتحقا بالرحلة قبل يومين في مزرعة فانتوم رانش، سيرافقاني
إلى الوادي في حال كنت بحاجة إلى مساعدة.

وعلى الممر الصخري، تمكنت من السير باستخدام عصاي فقط، لكن عندما تابعنا سيرنا إلى
الوادي، أصبحت الصخور أكبر فأكبر حتى أصبح لا يمكن سلوك الممر تقريباً. وكانت الصخور الضخمة
تسد الطريق على بعد ربع ميل أعلى الوادي، ولم يعد هناك أي ممر على هذا الجانب من الجدول.

فقال لي دان: "عليك عبور الجدول لصعود الوادي".

كيف أعبّر المياه؟ الخيارات أمامي: (1) أستطيع إنتعال حذائي المائي الذي كنت قد وضعتَه في الكيس الأسود في حقيبة الظهر، وأقوم بالعبور بنفسِي؛ (2) أستطيع إنتعال حذائي المائي وطلب المساعدة في عبور المياه؛ (3) أستطيع أن أطلب من دان أن يحملني للعبور.

يتحدث داروين في *The Descent of Man* عن كيف أن مع تحسن قدرات الإنسان على التفكير المنطقي، يتعلم كل فرد قريباً أنه إذا ساعد الآخرين فسيتلقى مساعدة بالمقابل. ومن هذا "الدافع المتدني" قد يكتسب عادة مساعدة الآخرين. وهذه العادة للقيام بأعمال خيرية تعزز بدورها شعور الرأفة الذي يصبح بالتالي قوة الدفع الأولية لمزيد من الأعمال الخيرية.

قررت أن أطلب من دان أن يحملني عبر المياه.

وعلى الجانب الآخر من الجدول، إستمر الممر. وبعد السير صعوداً وقليلًا، وجدت طرف صخرة لمشاهدة الجزء الأدنى من وادي هفاسو كانيون.

فقلت لدان وكيت: "يمكنكما المتابعة ثم أخذي عند العودة نزولاً."

وأنا أستلقي على الصخرة، إستخدمت حقيبة ظهري كوسادة. وكانت شمس الظهر تشوش حدود المياه والصخور والسماء. وكان الزبرجد يمتزج ليصبح وردياً ثم أزرق. أين شاهدت شيئاً مثل هذا من قبل؟ وفجأة رأيت إيان على طرف بيهيف على جزيرة ماونت دازرت آيلاند وتساءلت كيف أني الأكثر إعاقة في الأكثرية العظمى من المواقف في حياتي اليومية، لكن عندما تسلقت بيهيف مع إيان، وفي هذه الرحلة، كنت أتمتع بأكثر قدرة.

ثم نظرت إلى أعلى الوادي ورأيت سالي وهي تتعامل مع حذائها. لقد كانت سالي أكثر نشاطاً في هذه الرحلة. ولقد طلبت مساعدة أقل مني، لكنني لاحظت أن سالي تقضي معظم وقت فراغها وهي تنظم عدتها، ولم تكن تنام جيداً طوال الليل، وهي تعبئة باستمرار.

وعلى الرغم من أني إفتقدت إيان جداً – فإن شخصيته المصابة بإضطراب نقص الإنتباه قد تزدهر هنا بينما يبحث عن مكان للمخيم ويجمع عدتنا – إلا أني كنت أيضاً مسروراً لأنه لم يكن معي. فعندما نكون معاً، خصوصاً عندما نساfer، يقع على عاتقه دائماً العمل الجسدي. ولقد أعطتني هذه الرحلة فرصة إختبار حدودي الجسدية بالإضافة إلى قوتي النفسية. ولقد تمكنت من إختبار كيف لم أعد أدفع بنفسِي كثيراً.

لكني لا أزال أشعر بعدم الإرتياح ليس فحسب لإحتياجي للمساعدة إنما أيضاً لطلبي لها . فغالباً ما تكون مشاعر الخوف والخزي لا بل أسوأ بعد حصولي على المساعدة. ويبدو الأمر أسهل نوعاً ما عندما أدفع المال لشخص ليقوم بشيء لي. وعلى الرغم من أنني دفعت تكاليف هذه الرحلة، إلا أنني أعلم أن هؤلاء الدلائل هم من المتطوعين. إنني أريد أن أثق بمساعدتهم، وكذلك مجرد عرضهم لها، أكثر مما أقوم به.

لقد كانت رحلة داروين نحو نظرية التطور بنفسه عمل تبادل. فما أدلى إلى نجاحه الجماعي وكذلك إلى نشر نظريته هو وضعه الاجتماعي والمالي وعائلته وأصدقائه. فهو إستخدم أفراد عائلته في تجاربه، وتلقى مساعدة جيرانه. وللتوصل إلى الأفكار في صلب كتابه *On the Origin of Species*، إعتد داروين على نظريات الآخرين، مثل مالثوس ولايل ووالس. هل كان إفتقار والس للمكانة الإجتماعية سبب عدم التذكر اليوم أنه شارك في تأسيس نظرية التطور؟

وأشار داروين إلى أن أثناء تقدم الإنسان في الحضارة، أصبحت العشائر الصغيرة متحدة على شكل مجتمعات أكبر. وبدأ كل فرد بتوسيع غرائزه الإجتماعية نحو جميع أعضاء العشيرة وبالتالي نحو أعضاء أمة واحدة، على الرغم من أن هؤلاء الأشخاص كانوا مجهولين شخصياً بالنسبة له. وإستنتج داروين أن فور بلوغ هذه المرحلة، فقط العوائق الصناعية منعت تعاطفات فرد من الإمتداد إلى أعضاء كافة الأمم والأعراق.

هل هذا ما يقدمه الأشخاص ذوو الإعاقات للمجتمع: مثال عن أهمية الإعتداد، المجتمع؟ هل بهذه الطريقة يساعد الأشخاص ذوو الإختلاف الجسدي الصنف الهشري على البقاء؟

إننا سنعيش كأسرة خلال الأيام الخمسة عشر التالية. على الرغم من أن كلمات قائدة الرحلة بيرت بدت سخيفة، إلا أنها مؤيدة من رحلتنا. فلقد بلغنا هذه المرحلة ليس فحسب كأفراد إنما أيضاً كمجموعة مؤلفة من خمسة وعشرين شخصاً يجذفون في النهر.

ونظرت إلى أعلى الوادي، فرأيت دان وكيت. وسيحين الوقت قريباً للإعادة العبور إلى الجانب الآخر من المياه. ولن يكون هناك هذه المرة أي تردد حول كيف سأعبر.

لقد حملني دان من جديد كما لو كنت ذلظ الطفل الرضيع المولود قبل أربعة أسابيع والذي يتم إخراجها من الحاضنة. إن طلب المساعدة والقبول به يقوداني نحو مجهول عظيم، رحلة يعادل ضخامتها تاريخ طبقات الصخور والنهر الذي يساعد على تكوين كل ما يحيط بي.



كينى فرايز

كينى فرايز هو مؤلف كتاب تاريخ حذائي وتطور نظرية داروين [The History of My Shoes and the Evolution of Darwin's Theory] الذي تلقى جائزة أبرز كتب 2007 من "مركز غوستافوس مايرز لدراسة التعصب وحقوق الإنسان" [Gustavus Myers Center for the Study of Bigotry and Human Rights]، وكتاب "الجسم، تذكر مذكرات" [Body, Remember: A Memoir]، وكذلك محرر "التحديق بالسابق تجربة الإعاقة من داخلها إلى خارجها" [Staring Back: The Disability Experience from the Inside Out]، وتشمل كتب شعره "أنستازيا" [Anesthesia] و"مسيرة الصحراء" [Desert Walking]. ولقد كان زميلاً في الفنون الإبداعية في لجنة الصداقة اليابانية الأمريكية [Japan/U.S. Friendship Commission] والجمعية الوطنية للفنون [National Endowment for the Arts]، وحصل على منحة فولبرايت [Fulbright] إلى اليابان، وحصل على منحة Creative Capital Grant for Innovative Literature لعام 2009. وهو يدرس في برنامج MFA in Creative Writing في جامعة غودارد [Goddard College]. ويعود أصله إلى بروكلين في نيويورك حيث ولد وعظام مفقودة في كلا الرجلين. يرجى زيارته على www.kennyfries.com.

VSA arts

تابعة لمركز جون ف. كينيدي لفنون الأداء

فاكس 429-0868 (202) • طابعة بعبادية 737-0645 (202) • (202) 628-2800 • 818 Connecticut Avenue NW, Suite 600 • Washington, DC 20006
www.vsarts.org